التجربة من واقع قرآني

علي بن سالم الرواحي

إن التجارب تحصل لكل انسان على مر العصور ، وتنشأ من احتكاكه بالآخرين أو بالواقع، وحري بنا أن نستفيد من تجارب الآخرين كما نستفيد من تجاربنا، ونجربها في واقع حياتنا، ونكون ممن عناهم الحديث الشريف: (لا يلدغ المؤمن من جحرة مرتين)، وهذا هو مكمن الحكمة في التعامل مع معطيات الحياة، ونستطيع القول من منطلق هذا الحديث إن الحكمة ما هي إلا تجارب متأمل فيها، والتجارب بيتها، والتأمل نورها وروحها، وأينما وجدت التجربة مع الاتعاظ منها وجدت الحكمة، ونلاحظ في القرآن إشارات واضحة إلى التجارب العلمية، فضلاً عن التجارب الحياتية، مما يسنو لنا الاعتزاز بديننا الحنيف، وأن نتمسك به ونأخذه به في واقع حياتنا.

دعنا نتحدث عن معنى التجربة في اللغة ثم بمعناها العام والعلمي، فهي لغة مأخوذة من جرّب الشيء إذا امتحنه واختبره، ويقال رجل مجرب إذا عرف شؤون الحياة واختبرها، لذا قال الشاعر الشبراوي:

إنَّ الرِّجال صناديقٌ مقفلةٌ وما مفاتيحُها إلاّ التجاريبُ

وهي بمعناها العام ما يكتسبه المرء من معارف جراء اختباره للواقع بما فيه من إنسان، وهي بمعناها العلمي عمليات اختبار ظاهرة طبيعية علمية في حيز المختبر، بهدف دراستها والتوصل إلى قانون طبيعي رابط أو اكتشاف غامض، أو اختراع جهاز جديد أو ابتكار نظام مفيد.

وكان العلم المادي مجرداً حتى جاء المسلمون الأوائل، وأدخلوا عليه التجربة، وطبقوها في حياتهم، فابتكروا علم الكيمياء، وطوروا علوم الحساب والطب والفلسفة والطبيعيات، ثم جاء الغرب وطوروها إلى أبعد الحدود وأشادوا بأهميتها، ثم تبعهم العالم أجمع في ذلك، ومما قاله العالم كونفوشيوس: قل لي وسوف أنسى، أرني ولعلي أتذكر، أشركني – أي دعني أجرب– وسوف أفهم، وفيما أظن كانت هذه العبارات معلقة في كلية الهندسة بجامعة السلطان قابوس.

إن الأدلة القرآنية على تشريع التجربة كثيرة، ولسنا بصدد أن نستقرئها كلها، لكن نذكر طرفًا منها:

الآية الأولى :قوله تعالى:(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) (النحل)، وتكررت هذه العبارة القرآنية في سورة الأنبياء الآية السابعة، لقد حثنا القرآن على سؤال أهل الذكر، وأهل الذكر يجوز أن يكونوا هم أهل الاختصاص في العلوم الإنسانية والمادية كما أنهم المختصين في العلوم الإلهية والشرعية، فالعبرة بعموم اللفظ، ولا ريب أن المختصون في العلوم المادية والإنسانية هم أصحاب الخبرة في مجالاتهم، نالوها بالتجريب، فإنه كما يقال الخبرة أم العلم، فالعلم يؤخذ من الخبرة والتجربة، كما أن العقل المكتسب محكه التجارب، إذاً حثنا القرآن بالاستفادة من تجارب الآخرين، ومن الخطأ الفادح أن نكرر تجارب الآخرين بما فيها من أخطاء، هذا يعني أننا لم نستفد منها، فمن جرّب المجرب كان عقله مخرِّبًا، وخلاصة القول لو لم تكن التجارب مأمورًا بها ومحثوثًا عليها ديناً، لما أمرنا الله بالاستفادة منها.

الآية الثانية: قوله تعالى:(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يونس:١٠١)، ولا ريب أن النظر يشتمل على التفكر و ينتج منه الاكتشاف العلمي، والاكتشاف لا يأتي إلا بالاختبار والتجربة اللذين هما النظر نفسه.

ذكر الله جل جلاله بعض القصص تحكي عن تجارب، وهي:

القصة الأولى: قصة سيدنا موسى مع العصا، لا ريب أن انقلاب العصا إلى حية هو مهول جدًا ، لذا لما رأى موسى عصاه وهي تنقلب إلى حية خاف منها خوفًا كبيرًا حتى ولّى هاربًا منها، وذلك في أولى المراحل أيان رأى النار نوراً ، وسمع نداء الله منها، قال تعالى:(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) (النمل)، وقال أيضاً:(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) (طه)، فهي حية في سريان الحياة فيها، جانٌ في سرعة اضطرابها، ولما جرّب سيدنا موسى ذلك، وقام بعرضها على فرعون لم يشعر إيمانها بالخوف، قال تعالى:(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) (الأعراف) مع أن الثعبان هو حية كبيرة الحجم، لتخويف فرعون وملئيه، وهكذا اثناء مبارزته مع السحرة حيث شعر بخيفة مما صنع السحرة، لكنه وثق بربه.

هكذا نرى أن هذه التجربة ولدت نجاحًا وثقة وتمرسًا وعدم خوف واعتيادًا لدى موسى عليه السلام حين انقلاب عصاه إلى حية.

القصة الثانية: قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) (البقرة)

فإبراهيم كان مؤمناً بإحياء الله للموتى لكن أراد من الله ليريه ذلك اطمئناناً لقلبه، حتى يترقى إيمانه من علم اليقين إلى عين اليقين، فمارس سيدنا ابراهيم بنفسه عملية الإحياء، وجربها تحت سمعه وبصره، حتى أصبح أمر البعث أكيداً عنده بلا شك فكانت التجربة ناجحة جدًا.

القصة الثالثة: قصة الغراب وابني آدم، قال الله تعالى:(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) (البقرة)، لقد حار الأمر بقابيل الذي قتل أخاه هابيل فيما يفعل بجثته، حتى بعث الله جل جلاله، غراباً قام بحفر الأرض برجله ومنقاره، حتى أتم الحفرة دفع بالغراب الميت إلى الحفرة، مستخدما منقاره ثم دفنه ، وقابيل يشاهد ذلك ، حتى عرف من هذه التجربة كيف يواري جثمان أخيه، فكانت تجربته مع الغراب ناجحة مفيدة.

القصة الرابعة: فرعون وبناء الصرح، قال تعالى:(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) (القصص)، ففرعون أعتقد أن ببنائه الصرح الشاهق جدًا، سوف يصل إلى الله جل جلاله، فجرب ذلك بنفسه، ولم يجنِ إلا الفشل، وخسارة المال والرجال والحال.

القصة الخامسة: الرسول صلى الله عليه وسلم والمتخلفون عن غزوة تبوك، قال الله تعالى:(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) (التوبة)، هنا تجربة ناجحة يشرعها الله لرسوله الكريم عليه السلام وهي تتضمن عدم سماح بالتخلف عن الغزوة لكل أحد، ونتيجة التجربة إن النبي صلى الله عليه وسلم سيعرف أصحاب الأعذار الصادقة، وأصحاب الأعذار الكاذبة.

علمنا مما سبق مشروعية التجربة كسنة سنها القرآن الكريم، و عرفنا أهميتها، وأن التجربة الناجحة هي التي يستفاد منها وتكون معطياتها مثمرة جداً، كما أن مقدماتها يجب أن تكون صحيحة، والاستفادة من تجارب الآخرين بمثابة ضم عقولهم إلى عقولنا بشكل مجاني وغير متعب، وأن التجارب واسعة جدًا تشمل جميع مجالات الحياة، كما تشمل التجارب العلمية المدروسة بهدف صياغة علاقات بين أجزائها المختلفة.